إلى أرض النبـــــوة !

[وصف وتأريخ لرحلة الوفد السورى إلى الحجاز ربيع ١٩٣٥ لفتح طريق الحج البرى للسيارات]

للأســـتاذ على الطنطاوى

حين تصل هـذه المقالة إلى الرسالة ، يكون الركب الذى خرج من دمشق منذ أسبوعين يؤم الحجاز قد شارف المدينة إن شاء الله . وهو أول ركب من الزوار يسير على الطريق الذى كشفناه ، وفيه قريب من ثلاثمائة رجل وامرأة ، ووصوله سالماً إلى المدينة ، وذلك بفضل الله مؤكد ، هو الثمرة الأولى لرحلتنا الكشفية التى رحلناها فى ربيع سنة ١٩٣٥ . ولقد كان أول ما خطر على بالى حين دعيت إليها وضع كتاب عنها ، فكنت أثابر دفترى دائماً ، فلا نسلك طريقاً ، ولا نقطع وادياً ، ولا نرى جبلاً ، إلا كتبت اسمه وصفته ، وطبيعة أرضه ؛ ولا يمرّ علىّ قوم إلا سألت عن أنسابهم وأحوالهم ، ووصفت مساكنهم ، وذكرت ما عرفت من عاداتهم ، وسمت من لغاتهم ؛ ولا بتنا ليلة إلا ذكرت كيف حططنا الأحمال ، وكيف نهضنا للارتحال ؛ ولا أرى منظراً ، أو أشهد مشهداً ، إلا ذكرت أثره فى نفسى ، وما أثار فيها من عاطفة ، أو هاج من ذكرى ، على ضبط فى الأرقام ، وتحرّ فى جمع الأخبار ، وتوثق من صدق الراوى وخبرته ، حتى إذا دنونا من المدينة وأوفى الكتاب على الكمال ، وقارب النهاية ، امتدت إليه يد لا يعلمها إلا الله فذهبت به ، فأيست منه وأهملته ، وجعلت لا أكتب شيئاً ، ولا أدوّن خبراً ، إلا ما كان من وصف طريق العودة فهو مكتوب عندى ، وما كتبت من المقالات فى مجلة الرسالة أو فى غيرها . وعدت إلى دمشق فانغمست فى عملى ، ثم ضرب الدهر ضرباته فسافرت إلى العراق أولاً وثانياً ، وعملت سنة فى لبنان أدرّس فيها ، وحسبتنى نسيت الرحلة ونسيها الناس ، حتى كان هذا الشهر وحقق الله ما ذهبنا إليه ، ورأت دمشق اليوم الموعود ، فسافرت أول قافلة من الزوار ، وألح علىّ الأصدقاء ، وأعادوا الطلب منى أن أنشر وصف تلك الرحلة ، فأجبت مكرهاً ونفضت ذهنى ، فكتبت ما بقى عالقاً به وجعلت غرضى أن أدوّن ما رأيت وما سمعت ، وأسجل ما أحسست به وشعرت ، من غير أن أعمد إلى كتاب من كتب التاريخ أو رحلة من الرحلات ، فآخذ منها الفصول والأخبار والأرقام ، وأن أعرض على القارئ صورة من الحياة البدوية ، إذا هى لم تكن محيطة شاملة ، ولم تكن كافية وافية ، فهى صحيحة ثابتة ، ليست متخيلة ولا مبالغاً فيها ، فإن أحسنت فلله الحمد ، وإن أسأت فالذنب على من سرق (دفترى) عفا الله عنه وسامحه

* * *

وبعد ، فهذه رحلة كشفية سلخنا فيها شهرين اثنين وقطعنا فيها خمسة آلاف كيل فى الصحراء ... وركبنا فيها من الأهوال ورأينا من العذاب ما لو سردناه وفصّلناه لكان أشبه شىء بالأساطير

ولم تكن هذه الرحلة من أجل التسلية أو النظر فى عجائب المخلوقات وغرائب البلدان ، ولا للكسب والتجارة ، ولا لشىء مما يرحل أفراد الناس من أجله عادة ، بل كانت لمصلحة عامة ، وغاية اجتماعية ، تعود على بلاد الشام وأرض الحجاز بالخيرات الجمة والفوائد الكثيرة ، هى فتح طريق للسيارات بين دمشق والمدينة يسهل على الناس أمر الحج ويرغبهم فى أدائه ويوفر عليهم صحتهم ومالهم . ولم تكن هذه الرحلة رحلة واحد يهتم به أهله وأصحابه ، ولا جماعة يعنى بهم أقرباؤهم وذووهم ، ولكنها رحلة وفد من وجوه الشاميين وسراتهم وتجارهم . وكان الشاميون جميعاً يتبعونهم بأفكارهم ويرافقونهم بقلوبهم وينتظرون البرقيات منهم ويتسقطون أخبارهم ، فإذا انقطعت أياماً انتشر القلق وساد الذعر وهاجت الجرائد ، وأقبل الناس يسألون عن أبنائهم وإخوانهم ... فتهتم لذلك حكومة الشام ومملكة الحجاز ، ثم لا ينقطع القلق ولا تسكن النفوس حتى يعرف خبر الوفد وتجىء منه برقية أو رسالة

* * *

وكان أول عهدى بهذه الرحلة أن لقينى الشيخ ياسين الرواف المعتمد السابق للمملكة العربية السعودية فى دمشق ، فقال لى : لقد عزمنا على اختراق الصحراء إلى المدينة ، نكشف طريقاً للزوار برّيًا ، فهل لك فى مرافقتنا ؟

قلت : نعم ، ومضيت فى سبيلى وأنا أراها أمنية من الأمانى وأعلم أن بضاعتنا إنما هى الكلام ، وأن الوفد لن يسافر ، والطريق لن يفتح ، ولذلك قلت له نعم ؛ وأجبته إلى السفر . وهل كان يسعنى أن أقول له غير ذاك ؟ تصوّرْ بالله مسلماً يستقبل البيت خمس مرات كل يوم ، ويحنّ إلى هاتيك المعاهد ، ويرى زيارته منيته ومبتغاه ، وعربياً يحب الصحراء ويعرف أخبارها ، ويحفظ آدابها ، ثم يدعى إلى قطع الصحراء وزيارة الحرم ، هل يقول لا ؟ هل يرفض الوقوف أمام الحجرة الشريفة ، والقيام فى الروضة ، والصلاة حيال الكعبة ، والشرب من زمزم ، والسعى بين الصفا والمروة ، وزيارة هاتيك البقاع المباركة التى ولد فيها الإسلام ودرج ، وعاش فيها سيد العالم صلى الله عليه وسلم ، ويأبى أن يخالط العرب فى أرضهم ، ويعرفهم فى ديارهم ، ويرى عياناً ما كان يقرأ خبره فى الكتب ، ويعرف أخباره على السماع ؟

ولقد كنت أعلم أن هذه الرحلة جراءة على الموت واقتحام للخطر ، وهجوم على الصحراء الهائلة التى طالما ابتلعت من أمم وأبادت من جيوش ، ولكن ذلك كله كان يرغّبنى فى الرحلة ويحببها إلىّ ، لما ركّب فى طبعى من حب المغامرة والإقدام ، ولأنها درس من دروس الحياة لا أجده كل يوم ، هذا الدرس الذى من فصوله الصبر والجرأة والحزم والعزم والوحدة والنظام ، يحتاج إليه كل شاب ينشأ فى بلاد ليس فيها نظام عسكرى كالبلاد الشامية ؛ وأن الشبان الذين ولدوا فى الحرب العامة أو قبلها بقليل قد فقدوا لطول ما نشأوا على النعم وتقلبوا فى الترف طرفاً من الرجولة ، وغدوا لما وجدوا من السلامة وفقدوا من المصاعب يميلون إلى التطرّى والتأنث ، ويخشون الخروج من المدن ويهابون الحياة فى الريف ؛ حتى أن إخواننا من المعلمين إذا أمر أحدهم بالانتقال إلى قرية من القرى فكأنما أمر بالانتقال إلى جهنم . وما ذلك لسوء عيش القرى فليس فى القرى إلا صحة الأجسام وصفاء النفوس وجلاء النظر وراحة الفكر ، بل لأنه لا يجد فى القرية (قهوة) نديا فاسد الهواء مسدود الأبواب ، يجتمع فيه مائتان أو ثلاثمائة على نفخ الدخان ، وقرع النرد ، وحديث كأنفه ما يكون من الحديث ، ونكات كأثقل ما يكون من النكات — ولو أن للشباب ألفوا المغامرة وركوب الأهوال ، لما كان من ذلك شىء

وصرت أيام ثم لقينى الأستاذ الرواف كرة أخرى فقال لى : هلم فقد تقرر موعد السفر

فأسقط فى يدى ووقعت بين مشكلتين : مشكلة الوعد ، ومشكلة الوظيفة . فلا أنا أستطيع أن أضحى بوظيفتى ومنها معاشى ومعاش أسرتى ، ولا أنا أستطيع أن أخلف وعدى . ولو أنى وعدت غير الشيخ ياسين لهان الأمر ، ولكن الرجل نجدى سلفى لا يعرف من كلمة نعم إلا أنها وعد مبرم لا يحله إلا الموت؛ فاخترت الوفاء ولو خسرت الوظيفة وقلت له : أنا حاضر !

ثم يسر الله فسمحت لى الوزارة بالسفر ، وذهبت أعد الجواز. وجعلنا كلما أزمعنا السفر ، وودعنا الأهل والأصحاب ، عرضت لنا الموانع ، فأخرتنا حتى ضجرنا واستحيينا من الناس لكثرة ما نعزم ثم نقعد ، وكان أكثرنا قد أقلع عن حلق لحيته ليوفرها ، ويجمع منها لحية كبيرة ، لما ظنوه من أن الرجل هناك بلحيته ، فكلما كان أطول لحية كان أعلى مقاماً . . . فكانوا يأسفون عليها ويضنون بها على الخلق ، ويستحيون أن يواجهوا الناس بها ، لأن هذا الزمان جعل المعروف من السنة متكراً يستحيا منه ، والمنكر من البدعة معروفاً يفتخر به . ولبثنا على ذلك أياماً ، ثم عزمنا العزمة الأخيرة ، فبيّتنا ثقلنا فى المرأب (الكاراج) حتى نغدو مسافرين . فلما حملناه ورآه أصحابنا وجيراننا ، جاؤوا يودعوننا الوداع السابع ونحن لا ندرى أهو الوداع حقاً ، أم سنقيم بعده أياماً وليالى أم لا نسافر أبداً

كنا فى المرأب مع الفجر ، وجعلنا ننتظر حتى طلعت الشمس ، وكان الضحى ، وأذن الظهر ، وكان العصر ، فأيسنا ، وهممنا بالانصراف ولكن السيارات حضرت ، وتحقق الرحيل ، وكانت أربعاً من طراز (البويك) وواحدة من (الناش) . وقد رفعوا على السيارة الأولى علماً سمودياً ، وعلقوا فى صدرها لوحة كتبوا فيها « الوفد السوري لاكتشاف طريق الحج البرى » . وسرنا وسار وراءنا المودعون فى قطار من السيارات الكبيرة ما له آخر يعرف ، حتى لقد ظننت أنهم لم يدعوا فى البلد سيارة إلا استاقوها ، واخترق الموكب المدينة مهللاً مكبراً تهتز له الأرض ...

ولم أكن قد أيقنت بالسفر إلا فى تلك اللحظة . فلما تصورتنى كيف أفارق أهلى وموطنى ، وأطوح بنفسى فى هذه الصحراء